رمضان وانطلاق مشروع النهضة

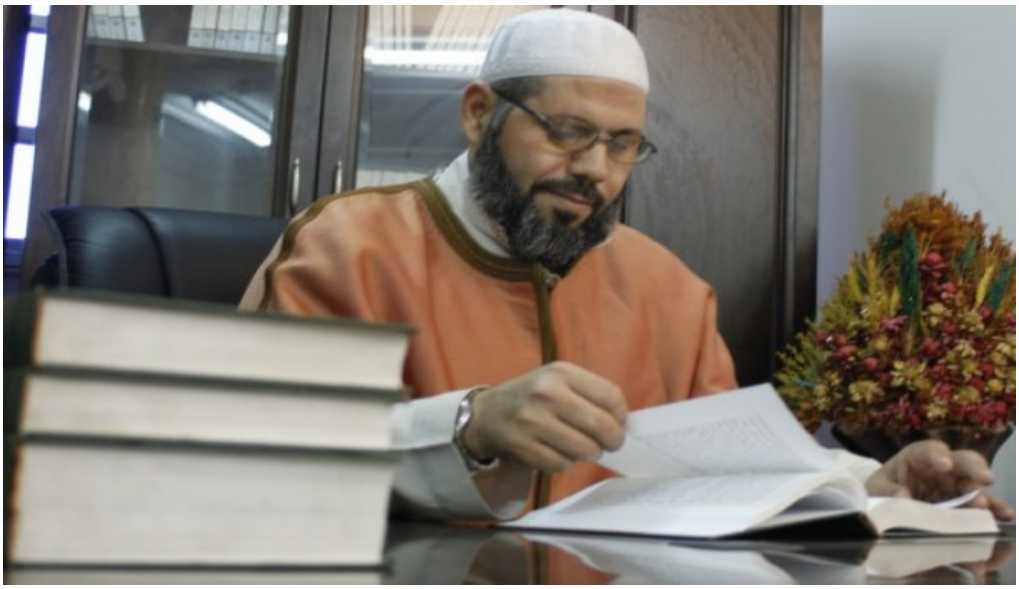

الأحد 22 يوليو 2012 12:07 م

بقلم : أ.د/ عبد الرحمن البر

أخرج البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»وأخرج مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

ها نحن ندخل شهر رمضان الذي اتصلت فيه الأرض بالسماء، وجعله الله مبدأً لخير الدنيا كلها حين اختاره لإنزال القرآن الكريم فيه على أطهر قلب عاش في هذه الحياة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي كان الصالحون إذا أقبل عليهم نادي بعضهم بعضا:

رمضان أقبل قُمْ بنا يا صاحِ فهذا أوانُ تَبَتُّلٍ وصلاحِ

واغنمْ ثوابَ صيامِه وقيامِه تسعدْ بخير دائمٍ وفلاحِ

رمضان شهر القرآن:

جعل الله هذا الشهر شهر التغيير من الأسوإ إلى الأفضل، ومن الحسن إلى الأحسن، وجعل فيه أعظم الأعطيات الإلهية، وأولها: نزول القرآن(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) القرآن الذي غيَّر وجهَ الدنيا، وبيَّض وجهَ الحياة، وجعل الله فيه صلاحَ الناس في معاشهم ومعادهم، فأصلح به النفوس الفاسدة، وهدي به القلوب الضالة، ووحَّد به هذه الأمة المتفرقة، ورقق به القلوب القاسية فصارت خير أمة أخرجت للناس، وحوَّل به العربَ من رعاة بقر إلى رعاة للبشر، ومن عباد حجر وصنم إلى دعاة لسائر الأمم. وما أحوجنا إلى العودة لهذا الكتاب العزيز واستمداد أسباب العز والفلاح ومناهج الخير والصلاح لأنفسنا ولأمتنا، واستلهام أسباب النجاح لنهضتنا من آياته البينات (إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ).

شهر الانتصارات:

في هذا الشهر الكريم حدثت غزوة بدر، التي كانت فرقانا بين الحق والباطل، فبعد أن ظن الكفار أنهم قاب قوسين أو أدني من الإنهاء والإجهاز على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى دعوة الإسلام، كانت النتيجة الفاصلة، حيث هزم الله أبا جهل وجيشه ونصر محمدا صلى الله عليه وسلم وحزبه. وأحدث ذلك تغييراً عظيماً في الجزيرة العربية، أدرك معه الناس أنهم أمام قوة عظيمة مؤيدة من الله، ليست قوة عادية وليسوا بشراً عاديين، ولكنهم بشر مؤيدون من السماء.

ثم كان هذا الشهر الكريم شهر الفتح المبين الأعظم، فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة، الذي كان محطة تحول عجيب في حياة العرب، كما جاء عند البخاري: «كَانَتِ الْعَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلاَمِهِمِ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ. فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلاَمِهِمْ»، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وقال

الله تعالى (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً).

وفي هذا الشهر الكريم أيضا نصر الله المسلمين في عين جالوت في 25 رمضان بعد سقوط جيوش بغداد بسنتين، حين قام الدعاة يذكِّرون الناس بالله ويحضُّونهم على أن يلتزموا بأخلاق الصيام، وخرجوا إلى عين جالوت لملاقاة التتار، فنصر الله المسلمين، وكانت هزيمة مدوية، من نتائجها العجيبة فيما بعد: أن التتار بدءوا يدخلون في الإسلام، ولأول مرة، يدخل الجيش المنتصر في دين الشعب المغلوب، وعادت دولة الإسلام مرة أخرى لتتبوأ مكان الصدارة.

وفي العاشر من رمضان سنة 1393هـ في 6 أكتوبر1973م، رأينا كيف نصر الله المسلمين لما علت صيحات الله أكبر في رمضان. وهذه كله مؤشرات على أننا إذا أقبلنا على الله في هذا الشهر جاءنا الحق جل وعلا بالخير العميم والنصر المبين وبدل حالنا إلى أحسن حال.

نحن إذاً في حاجة إلى أن نقف مع أنفسنا في هذا الشهر الكريم، إذا كنا نريد العزة والنصر والمجد وسعة الرزق، ونريد من الحق جل وعلا أن يكون معنا، فإن رمضان فرصتنا المواتية، لنغير حالنا، ليغير الله ما بنا، فالله تعالي يقول: [إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ]. وهذا أول رمضان في عصرنا الحديث يأتي على الأمة وهي تملك قرارها وتمسك بنفسها زمام أمرها، وفي ظل عهد جديد فيه حاكم جاء بإرادة شعبية حرة، ويملك برنامجا عمليا متميزا للنهضة، فضلا عن إرادة صادقة في التغيير للأفضل، وهو ما يوجب علينا نحن الشعب الحر أن نتجاوب معه لإحداث التغيير المنشود، ومواجهة كل أسباب الإحباط التي يروجها المرجفون وتخطي كل العوائق التي يضعها المبطلون.

لئن كان الشهر الكريم شهر الانتصارات على مدار التاريخ في ميدان المعركة مع العدو الخارجي؛ فإنه أيضا شهر الانتصار للإرادة القوية والعزيمة الماضية على أهواء النفس وعلى أصحاب إرادة الفساد، وتلك هي معركتنا الآن، ولدينا بفضل الله كل أسباب الانتصار فيها، ولعله من توفيق الله أن تكون بداية هذه المعركة في النفس والمجتمع متزامنة مع الشهر الكريم، حيث تنشرح الصدور للخير، وتتهيأ النفوس للإقبال على الله، وتمتلئ المساجد بالذاكرين ولا تغادر المصاحف أكف المؤمنين، ولا تنقطع عن الدعاء والرجاء ألسنة الموحدين، وبهذا يتم البناء الروحي الذي هو أساس بناء النهضات.

شرع الله الصيام لتحقيق التغيير:

فلنذكر أن الله شرع الصيام لنحقق به التقوى، فأنت لا تصوم لمجرد الجوع والعطش؛ إنما أراد الله أن يُرقِّق قلبَك، وأن تَرِقَّ نفسُك، وأراد أن تتصل به: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).وإذا حلت التقوى في القلوب تبدلت أحوال الناس، وتوجَّه كل إنسان إلى الحق وإلى فعل الخير وأداء الواجب من غير رقيب ولا حسيب ولا شرطي، وإذا خلا بنفسه علم أن الله مطلع عليه.

إذا خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

إذا امتلأت القلوب بهذه التقوى فلن يطلب الموظف رشوة كي يحقق لك مصلحتك لأنه يخاف من الله، ومن كان عنده مصلحة لأحد من الخلق فسيبادر بتنفيذها لأهلها؛ لأن المتقي لله يحاسب نفسه، وهذا ما يريد الله أن يعلمنا إياه في هذا الشهر الكريم.

هذا الشهر فرصة لترتقي بنفسك وتغير من أحوالك، وفرصة أيها الأحبة لنجدد هذا العهد مع الله، فرصة لمن عنده خلق رديءٌ أن يصلحه، وكلنا عيوب وكل بني آدم خطاء.

هذا الشهر فرصة لمن اعتاد أن يأكل حراما أو طعاما فيه شبهة ليرجع إلي الله ويحفظ بطنه من الحرام، ويذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما صححه الحاكم:«إن الله أبى علي أن يُدخل الجنة لحما نبت من سحت فالنار أولى به».

فالصيام الـذي يحقق غايته وثمرته، هو الذي يغير حياتك، ويغير عاداتك، ويغير أخلاقك، لا مجرد الجوع والعطش، فقد قال صلى اللـه عليه وسـلم فيمـا أخرجه البخـاري: «مَـنْ لَمْ يَـدَعْ قَـوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَـلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَـةٌ فِى أَنْ يَـدَعَ طَعَـامَهُ وَشَرَابَهُ».

إننا في عهـدنا الجديد في حاجة إلى تنمية أخلاق النهضة لننطلق نحو المسـتقبل الزاهر اللائق بأمـة القرآن في ظل حكم رشـيد يقدم مصـلحة الأمة على كل المصالح الشخصـية والحزبيـة، فهل ننطلق مع انطلاق الشـهر الكريم في التعاون في عملية البناء والنهوض؟

_____

ينابيع تربويه